الفاعل والتفاصيل

في مجموعة الحازمي

معجب العدواني

ترمي القراءة التالية إلى الكشف عن جزئية محددة تفترضها مكونات السرد في المجموعة التي بعنوان (تلك التفاصيل) والتي صدرت مؤخراً 1421هـ للقاص حسن حجاب الحازمي . وللحازمي مجموعة قصصية وأخرى شعرية ودراسة نقدية طبعت في نادي جازان الأدبي هذا العام. وتحوي المجموعة موضوع الدرس تسعاً من القصص القصيرة التي جمعت ــ فيما أرى ــ أنموذجاً موحداً من الشخصيات في شخصية الفاعل ، وكأني بتلك التفاصيل التي تناولتها المجموعة تميل إلى التفاصيل التي تكشف عن الفاعل ، ولا يعني رمي هذا الفاعل بصفات كهذه التقليل من شأن النصوص القصصية الواردة في المجموعة ، ولكنها محاولة قراءة تسعى إلى الكشف ــ في حده الأدنى ــ عن دور الفاعل في ضوء حضور تلك التفاصيل.

إن الفاعل الذي ورد في كل قصص المجموعة فاعل يفصل الصفات ويعيد إنتاجها بطرق تفرضها أوضاع النصوص الموازية (عناوين القصص القصيرة) إذ يمكن أن نضع الوصف الملائم لكافة الفاعلين في النصوص بأوصاف تنتقل من صيغ ترد في النص الموازي أو صيغ اسم المفعول إن وجدت إلى فاعل موصوف بأسماء الفاعلين :

فالنص القصصي الأول في المجموعة ورد بعنوان (أقصى درجات الخيبة) يحول إلى الوصف (خائب،أو باحث عن راحة، مسافر، ، فارغ، متجه إلى الموت... وذلك تأويل لعناوين واردة في مطالع النصوص القصصية في المجموعة، ولا استثناء للنص الذي بعنوان (الصورة) ، ويتم التكثيف لتفاصيل حظي بها الفاعل، وهي تفاصيل تتصل بالزمن فحسب، وتتجلى في أوجه مختلفة مثل: الإطار الزمني لذلك الفاعل ، فالعمر الشخصي وغالباً ما يتحدث السارد عن عمر الفاعل في أغلب النصوص. والزمن المحدد يسمحان بإيجاد مظهر مختلف للفاعل.

هذا التمهيد البدئي يسمح لنا بالتجاوز إلى قراءة أخرى لأحد نصوص المجموعة وهي قصة بعنوان (المسالم) ، وفي ذا النص تأكيد من عنوانه الأولي على التوضع في مركز الفاعلية فهو الذي يقوم بالفعل ولا يقع عليه، إلا أن المسالم بدا وصفاً يؤكد وقوع السلام على صاحبه إجباراً لا فعلاً ذاتياً يقوم به ، فيتحول السلام من حمامة تشدو بجواره ــ بجوار الفاعل ــ إلى تمساح يمسك بتلابيبه ليعرقل حركته.

يرى هذا المسالم إن السلام هنا لا يتعدى كونه أنشوطة تقوده إلى ما لا نهاية ، ومع أنه لا احتمال لتأويل إضافي لهذه الشخصية يجاوز هذه الدائرة إلا أن دوائر تأويلية أخر قد تقف على حافة النص في انتظار مزيد من التحديدات.

تظهر أولى تجليات المسالمة أو السلام على فاعل يقوم بسرد واقعه بعلاقة سلام لا تبتعد كثيراً عن علاقة استسلامية للمتلقي منذ مواجهته للنص تظهر في صور متنوعة من التعبيرات الأولية الجاهزة في اولى فقرات النص" أعترف لكم "، " إنني إنسان مسالم "، ما زلت أحتفظ بجسمي موفوراً كما هو".

ومن جانب آخر قد تتجاوز تلك الصور إلى صور أكثر جلداً للذات ، تنتقل من مرحلة الاعتراف إلى مرحلة الإحساس بخطورة الوضع الذي يحيط بذلك الفاعل " أشعر بخجل عميق من نفسي" وأنكس رأسي خجلاً ". إلى جانب إحساس بالخلط بين التسامح والمسالمة أورث هذا الفاعل عقده النفسية كلها.

عبر هذه التجليات يمكن أن نحدد سير فاعل (مسالم) إلى موضوع سام وغاية يسعى إليها (البطولة) مع وجود عناصر أخرى في النص تكشف عن ملامح المعارضة والمساندة لهذا الفاعل، وتفضي به في النهاية إلى السير في طريق المسالمة مجبراً لا مختاراً .

ومن هذه العناصر المساعدة : وجود معركة جاهزة يكتشف تفاهة سببها بل وسوء فهم لذلك، وجسد قوي ذو مهارة لا تنقصه القدرة على ضرب الخصم ولكن ينقصه الحظ........ومشاركة ابن عم وصديق... وخصم مستعد وجاهز للعراك يتعدى ذلك إلى وجود معركة قابلة للإضافة إليها .

و هناك حرص ذاتي ـــ منذ الصغر ـــ على أن يكون مثل أقرانه في الخصام والاعتداء مع وصوله إلى سن الثلاثين، ومحاولة لتبرير الجبن والخنوع.

أما العناصر التي وقفت موقف المعارض في السرد فتبدو في مستويين اثنين:

أولهما مستوى ذاتي ينبثق من لغة الجبن والخنوع التي أشرنا إليها آنفاً ، إلى جانب إعلان من السارد بهذا الوصف ، في حين لم يصفه أحد بذلك.

وثانيهما مستوى جماعي يتصل بلغة الأب الحقيقي المباشـــر، والأب الأعلـــى (شـــيخ القبيلة) ، ثم القبيلة (المجتمع الصغير) ، ثم المجتمع ممثلاً في الجمهور الذي اجتمـــع حـــول موقع القتال، وموقف رجال الشرطة ثم السجن.

ولنتناول هنا بعض المواقف التي يمكن لها أن تحدد معارضة الذات الصريحة للخروج من شرنقة الجبان أو المسالم أو الخاضع ، مع أن النص قد يسعى إلى غير ذلك ، وقـــد وردت في النص عبر تعبيرات تستهدف المتلقي في خطاب مباشر أشرنا إلى ذلك في البدء ولنساير في ذلك إشارة النص التالية التي أعيد ذكرها وهي " .. لقد قلت لكم بدءاً إنـــني إنســـان مسالم .." ص 31. وهي تالية لخطاب آخر للمتلقي " اعترف لكم بدءاً إنني إنسان مسالم " ص29، " ودرجت على سلم الحياة خائفاً أترقب " ص 31 .

كان الشعور بالمسالمة والتسامح مع الآخر شعوراً داخلياً لم يحتج إلا إلى قليل من الرعاية الاجتماعية لهذه البذرة الموجودة في الذات والتي تتكشف على السطح عبر هذه التعبيرات. التي تجد مناخها الملائم وسط ما ينتجه المجتمع وهو ما أشرنا إليه بالمســـتوى الجمـــاعي ، الذي يتمثل في صورة الأب الحقيقي لهذا الفاعل ، وهو في الآن نفسه يعد معارضاً مباشراً لأي منتج من الابن حين يتصل بالآخرين فعقاب الأب الدائم التالي لما يحدث من شكوى للأب يولد هذا العقاب الشديد الوطأة الضرب والربط مع الحمار ليلة بأكملها ، وفي هذا إخراج للفاعل من جنس الإنسان إلى جنس الحيوان ، إذاً يفترض الوعي العـــام للثقافـــة القبلية هنا أن أي خروج من إطار التسامح والمسالمة يستحق مثل هذا العقـــاب لأن هـــذا الفعل يوازي فعلاً حيوانياً ، وبصورة أخرى يبقى الإنسان إنساناً بتسامحه ومسالمته ويخرج من إطار الإنسانية إلى الحيوانية عبر العدوانية أو الاعتداء على الآخرين.

لكن المبالغة في التكريس للمسالمة قد فعَّلها النص في إيجاده لصورة الأب الأعلى كمـــا نفترضه وهو (شيخ القبيلة) الذي يبالغ في سطوته على رجال القبيلة " وبقدر تسامحه مع القبائل الأخرى ، فقد كان شديد الوطأة على أبناء قبيلته ، ولا يسمح لكائن من كان أن يسيء إلى سمعة القبيلة مهما كان مقدار هذه الإســـاءة ، بـــل إنـــه يضـــخم الأشـــياء الصغيرة...." ص 30.

كان خطاب شيخ القبيلة خطاباً يحمل وجهين متناقضين كما تحـددها وجهـة نظـر الفاعل، فهو يراه ساعياً إلى أن يتحلى أفراد قبيلته بالصبر والأناة والتسـامح والشـرف والأمانة، لكنه حين وقوع خروج غير مألوف على مثل هذه القائمة فإنه يعـرض والـد الطفل أو الطفل نفسه إلى إهانات شتى ، وأفعال تتجاوز هذا الأب إلى إيفاد الوفود للصلح والمهادنة . و يأتي ذلك كله في احتفاء بلاغي بجمل يرددها المجتمع عبر السارد ، مما يؤكده الأب والأب الأعلى مثل (ربِّ أولادك ، سمعة القبيلة فوق كل اعتبار ، فكر في سمعتنا).

تظل علاقة الدم مع المسالم علاقة ملتبسة تكشف عنها تجليات مفردة (الدم) نفسـها في النص فخطاب السارد المسالم يبدو أكثر تماسكاً من الأدوار التي يقوم بها ذلك الفاعل ، فالسارد يبحث عن شج يصيبه ليخدش أولاً جسده ثم ليخدش بصورة رمزية علاقته مـع القبيلة ، فالجسد الذي ترعاه القبيلة وتحفظه من الآخر في مقابل حفظ حقوق الآخر أيضاً يبقى ـــ والحالة هذه ـــ بعيداً عن لون الدم المنبثق من خدش أو جرح بوصفهما تعبيراً عن انتهاك الآخر لذلك الجسد، ولعل ذلك يعود إلى مراعاة لعلاقات القرابة (الـدم) الـتي تصل القبيلة بمن حولها، ويؤكد النص هذا الأمر " .....وأصبحت أعيش بعيداً جداً عـن أسرتي الصغيرة والكبيرة ، إلا أنني أحمل ميراثها في دمي " فالقبيلة في النص ليست كيانـاً ظاهراً قدر ما هي كيان خفي يتجلى في علاقات القرابة وحمل موروثها.

ويمثل البحث عن خدش في الجسد الحامل لذلك منطلق الخروج من أعباء القبيلة ومـا أورثته، ولذا كانت إراقة دم القبيلة معنوياً هاجس سارد يخاطب متلقيه الأولي " ثم اسمحوا لي أن أبشركم إنني البارحة والبارحة فقط أرقت دم القبيلة في الأرض ، وليتني لم أفعل ". ولذا كانت تجليات المفردة (الدم) في النص توحي بتلك العلاقة المختلفـة لوظيفتـه في النص فشج الرأس الذي كان أمنية له ، وحالة ابن العم وقد خرج الدم من أنفه ، صورتان حسيتان للسعي إلى تهشيم الجسد وإخراج له من دائرة الجسد القبلي الذي يمكن وصـفه بأنه (جسد بلا جروح) ومع ذلك فقد أعقبه حسرات متتاليات على ميراث قبلي أريق دمه كما تشير إلى ذلك آخر عبارة في النص ،فالدم الذي يشكل صبغاً جديـداً تفترضـه انحناءات العمل السردي لا يستطيع أن يقهر ميراث الدم الرمزي القبلي.

وفي المحاولة الأخيرة التي يتبين فيها آخر المعارضين والتي أكره عليها ليخترق هذا الحاجز يرى السارد تجمعاً لجمهور من الناس في خصومة لا علاقة له بها ، وفي وسط الزحام من أناس يعيشون الوضع نفسه من المسالمة أو الجبن فهم لم يتعاركوا مع أحد ولكنهم يجتمعون كغيرهم ، إنه اجتماع بلا عراك شاء له أن يشهد عراكاً من نوع آخر وبدون سبب يستحق فالسبب كان سوء سماع لـ " الله يرحم والديك" وبما أن السبب كان كذلك فلابد أن يعي هذا المقاتل الذي فشل في أول معركة يخوضها من وجهين : كونه لم يحقق نجاحاً يذكر في الصراع ، وكونه يقاتل بلا قضية تستحق ، وأخيراً كونه يتلقى عقوبة إضافية من المجتمع الذي يتحول هنا من النظام القبلي إلى نظام مجتمع يبدو من الخارج أكثر رقياً لا يعاقب بالسجن عوضاً عن التأنيب، ولكن هذا المجتمع لا يختلف عن صورته الأولى صورة القبيلة وشيخها الذي يتلمس العقاب عبر الكلام ، ويضيف إليها قشرة مجتمع مدني يعاقب بالسجن فضلاً عن التأنيب والتعذيب، إن العقاب الذي يتلقاه هذا المسالم الذي لم يخطئ في فترة عمره المديدة (ثلاثون سنة) عقاب يخرج منه بحكمة جديدة تغري بكثير من المسالمة أبد الدهر (الصلح مع ألد الأعداء أرحم من البقاء في ضيافتهم ولو ثانية واحدة) .